## الفصل الثالث

# الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

تتعدد أوجه الإعجاز في كتاب الله بتعدد جوانب النظر فيه، فكل حرف من حروفه، وكل كلمة من كلماته، وكل آية من آياته فيها إعجاز لفظي وبياني ودلالي، وكل مجموعة من الآيات، وكل سورة من السور ـ طالت أم قصرت ـ تشهد لكتاب الله ـ تعالى ـ بأنه معجز بما فيها من قواعد عقدية، أو أوامر تعبدية، أو قيم أخلاقية، أو ضوابط سلوكية، أو أحداث تاريخية، أو إشارات علمية إلى شيء من أشياء هذا الكون الفسيح وما فيه من ظواهر وسنن وكائنات، أو خطاب إلى النفس الإنسانية أو أحكام تشريعية أو غيرها.

فكل تشريع، وكل قصة، وكل واقعة تاريخية، وكل إشارة تربوية، وكل نبوءة مستقبلية، وكل نصيحة تنظيمية، وكل خطاب إلى النفس الإنسانية مما جاء في القرآن الكريم يفيض بجلال الربوبية، ويتميز عن كل صياغة إنسانية في روعة الأسلوب، ودقة المحتوى وكماله وشموله مما يشهد للقرآن الكريم بالتفرد، كما يشهد بعجز الإنس والجن فرادى ومجتمعين عن الإتيان بشيء من مثله.

وقد أفاض المتحدثون عن أوجه الإعجاز في كتاب الله، فكان منهم من رأى ذلك في جمال بيانه ودقة نظمه وكمال بلاغته، ومنهم من رأى ذلك في روعة معانيه، وشمولها، واتساقها، ودقة صياغتها، وقدرتها على مخاطبة الناس على اختلاف مداركهم وأزمانهم، وإشعاعها بجلال الربوبية في كل آية من آياته..!!

ومنهم من أدرك أن إعجاز القرآن هو في كمال تشريعه ودقة تفاصيل ذلك التشريع وحكمته وشموله، ومنهم من وجده في استعراضه الدقيق لمسيرة البشرية ولتاريخ عدد من الأمم السابقة من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين

ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ، مما لم يكن يعلم تفاصيله أحد من الناس في زمن الوحي، ولا لقرون طويلة بعد ذلك الزمن.

ومنهم من رأى إعجاز القرآن الكريم في منهجه التربوي الفريد، وأطره النفسية السامية والعلمية في نفس الوقت، والثابتة على مر الأيام، أو في إنبائه بالغيب مما تحقق بعد نزوله بسنوات طويلة، أو في إشاراته إلى العديد من حقائق الكون وسنن الله فيه مما لم يكن ممكناً لأحد من البشر أن يصل إلى شيء من معرفته وقت نزول القرآن الكريم ولا لمئات السنين من بعد ذلك.

ومنهم من رأى إعجاز القرآن في صموده أمام كل محاولات التحريف التي قامت بها قوى الشر المتعددة متمثلة في الكفرة والمشركين، والملاحدة المتشككين على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وذلك لأن الله ـ تعالى ـ قد تعهد بحفظه بعهده الذي قطعه ﷻ على ذاته العلية ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً، وذلك بقوله العزيز: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ومن العلماء من يرى إعجاز القرآن الكريم في ذلك كله وفي غيره مما يقصر الحديث عنه فهناك **الإعجاز اللغوي**، البياني، النظمي؛ و**الإعجاز العقدي والتعبدي والأخلاقي، والتشريعي**، وهناك **الإعجاز التاريخي، والتربوي، والنفسي، والاقتصادي، والإداري، والإعلامي**، وهناك **الإعجاز العلمي والتقني، والإعجاز العددي (الرقمي أو الحسابي)، والإعجاز الإنبائي، والإعجاز الصوتي؛ والإعجاز في الحفظ في نفس لغة الوحي، والحفظ من التحريف أو الضياع، وإعجاز التحدي** للإنس والجن ـ فرادى ومجتمعين ـ أن يأتوا بشيء من مثل القرآن الكريم وغير ذلك كثير، مما يؤكد على تعدد جوانب الإعجاز في كتاب الله وينفي قصر ذلك على إعجاز نظمه كما يتضح من التحليل التالي:

### الإعجاز النَّظْمِي ليس هو كل الإعجاز في القرآن الكريم:

لقد أوتي كل نبي من أنبياء الله وكل رسول من رسله من المعجزات ما شهد له بالنبوة أو بالرسالة، وهذه المعجزات كانت مما تميز به أهل العصر،

فموسى عليه السلام بعث في زمن شاع فيه السحر، فأعطاه الله ـ تعالى ـ من العلم ما أبطل به سحر السحرة، وعيسى عليه السلام بعث في زمن شاع فيه الاهتمام بالتطبيب فخلقه الله سبحانه وتعالى بمعجزة، وأنطقه وهو في المهد، وأعطاه من القدرات ما خلق بها من الطين كهيئة الطير ونفخ فيه فكان طيراً بإذن الله، وما أبرأ به الأكمه والأبرص بإذن الله، وما أحيا به الموتى بإذن الله، فتفوق بذلك على أطباء عصره.

أما خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فكان نبوغ قومه في الفصاحة والبلاغة وحسن البيان فآتاه الله ـ تعالى ـ القرآن وتحداهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو حتى بسورة واحدة من مثله. ولمَّا لم يتقدم عاقل ليقول إنه استطاع ذلك؛ ظن كثير من الناس أن إعجاز القرآن الكريم ـ بمعنى عجز البشر عن الإتيان بشيء من مثله ـ متجسد في نظمه وفصاحته وبلاغته، خاصة وأن القرآن الكريم قد أدهش فصحاء العرب حين سمعوه، وأذهل عقولهم حين قرأوه، ولمَّا لم يجدوا سبيلاً إلى الطعن فيه لجأوا إلى وصفه بالسحر أو بالشعر؛ إقراراً بعجزهم عن الإتيان بشيء من مثله، وصدق الله العظيم إذ يقول مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٢٩ ـ ٣٤]، ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣].

انطلاقاً من ذلك ركزت الكثرة الكاثرة من القدامى والمعاصرين ـ على حد سواء ـ على ناحية نظم القرآن الكريم، وقد كان في مقدمة هؤلاء الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، وتبعه كثيرون كان منهم الواسطي (ت ٣٠٦هـ)، والطبري (ت ٣١٠هـ)، والأشعري (ت ٣٢٤هـ)، والسمرقندي (ت ٣٧٣هـ)، والرماني (ت ٣٨٦هـ)، والخطابي (ت ٣٨٨هـ)، وكل من الباقلاني

(ت ٤٠٣هـ)، والقاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ)، والثعلبي (ت ٤٢٧هـ) وابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، والظاهري (ت ٤٥٦هـ) والجرجاني (ت ٤٧١هـ)، والغزالي (ت ٥٠٥هـ) والبغوي (ت ٥١٠هـ)، وكل من القاضي عياض (ت٥٤٤هـ)، وابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ).

ويذكر ابن عطية في مقدمة تفسيره (١/ ٢٧٨) ما نصُّه: «إن الله قد أحاط بكل شيء علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن الكريم، علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن الكريم إلى آخره، والبشر يَعُمُّهُم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن أحداً من البشر لا يحيط بذلك؛ فبهذا جاء نظم القرآن الكريم في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتهم الإتيان بمثله فصرفوا عن ذلك، والصحيح أنه لم يكن في قدرة أحد قط، ولهذا نرى البليغ يُنَقِّحُ القصيدة أو الخطبة حولاً، ثم ينظر فيها فيغير منها وهلم جراً. وكتاب الله لو نُزِعَتْ منه لفظة، ثم أُدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد . . . وقامت الحجة على العالم بالعرب؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة».

وتلا هؤلاء الفخر الرازي (ت ٦٠٤هـ)، وكل من السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، والزملكاني (ت ٦٧١هـ) والعز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ)، والقرطبي (ت ٦٧١هـ) والبيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، والنسفي (ت ٧٠١هـ)، والخازن (ت ٧٤١هـ)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، والزركشي (ت ٧٩٤هـ) من أعلام القرن الثامن الهجري، والثعالبي (ت ٨٧٦هـ)، والبقاعي (ت ٨٨٥هـ) من القرن التاسع الهجري، والسيوطي (ت ٩١١هـ) من أعلام القرن العاشر الهجري، والألوسي (ت ١٢٧٠هـ) من أعلام القرن الثالث عشر الهجري.

ونشطت الكتابة في موضوع الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين نشاطاً ملحوظاً، وكان ممن خاضوا هذا المجال كل من الأئمة: الزرقاني، الرافعي، الجزائري، المراغي، دراز، أبو زهرة، النورسي، محمد رشيد رضا، محمد فريد وجدي، القاسمي، عبد الجليل

عيسى، حسنين مخلوف، أبو زيد الدمنهوري، محمد محمود حجازي، سيد قطب، بنت الشاطئ، بدوي، البيومي، العماري، والمطعني وغيرهم، ومن هنا كان تحديد إعجاز القرآن الكريم في مجال نظمه وبيانه وفصاحته.

ولكن إذا جاز هذا التحديد على موقف التحدي من مشركي العرب ـ على الرغم من عدم وجود الدليل على ذلك ـ فإنه بالقطع لا يجوز على إطلاقه؛ خاصة أن العرب اليوم في جملتهم قد فقدوا الحس اللغوي الذي تميز به أسلافهم، وأن التحدي بالقرآن الكريم للإنس والجن متظاهرين هو تحد مستمر قائم إلى يوم الدين؛ مما يؤكد أن ما في القرآن الكريم من أمور الغيب، وحقائق التاريخ، ومن فهم دقيق لمكنون النفس البشرية وحسن الخطاب في هدايتها وإرشادها وتربيتها، ومن مختلف الصور التي رسمت أو ضربت لعجائب آيات الله في خلقه، ومن غير ذلك مما اكتشفه ولا يزال يكتشفه في كتاب الله متخصصون في كل حقل من حقول المعرفة لا يمكن أن يبقى بمعزل عن ذلك التحدي المفضي إلى الاعتراف بحقيقة الإعجاز القرآني، والدال على أن القرآن هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً إلى ما شاء الله كي يبقى القرآن الكريم شاهداً على الخلق أجمعين إلى يوم الدين، وشاهداً للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة. وبهذه الصفة لا بد وأن يبقى في هذا الكتاب الخالد من جوانب الإعجاز ما يناسب كل عصر، وأبرز ما يناسب عصرنا الحالي ـ وهو عصر التقدم العلمي والتقني المذهل ـ هو جانب الإعجاز العلمي في كتاب الله.

**الإعجاز العلمي في كتاب الله:**

يزخر القرآن الكريم بالعديد من الآيات التي تشير إلى الكون وما به من كائنات (أحياء وجمادات)، وإلى صور من نشأتها ومراحل تكونها، وإلى العديد من الظواهر الكونية التي تصاحبها، والسنن الإلٰهية التي تحكمها، وما يمتتبعه كل ذلك من استخلاص للعبرة وتفهم للحكمة، وما يستوجبه من إيمان بالله، ويقين

بكمال صفاته وأفعاله، وهو ﷻ الخالق البارئ المصور الذي أبدع الخلق بعلم وقدرة وحكمة لا تحدها حدود، ولا يفي بحقها وصف.

وقد أحصى الدارسون لهذه الإشارات الكونية في كتاب الله ما يُقَدَّر بحوالي ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة. وبدوام اتساع دائرة المعرفة الإنسانية، وتكرار تأمل المتأملين في كتاب الله، وتدبر المتدبرين لآياته ـ جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر ـ لن ينفك العلماء والمتخصصون يكتشفون من حقائق الكون الثابتة في كتاب الله ما يؤكد على تحقق الوعد الإلٰهي الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وبدهي أن يتباين موقف العلماء من تلك الإشارات الكونية في كتاب الله بتباين الأفراد وخلفياتهم الثقافية وأزمانهم، وباتساع دائرة المعرفة الإنسانية في مجال الدراسات الكونية التي تعرف باسم «دراسات العلوم البحتة والتطبيقية» من عصر إلى عصر. وأول من بسط القول في ذلك كان **الإمام أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)** في كتابيه «إحياء علوم الدين» و«جواهر القرآن» والذي رفع فيهما شعارات عديدة منها أن القرآن الكريم يشمل العلوم جميعاً، وأن من صور إعجاز القرآن الكريم اشتماله على كل شيء، وأن كل العلوم تشعبت من القرآن الكريم، حتى علم الهيئة، والنجوم، والطب إلى آخر ما ذكر.

وتبع الإمام الغزالي في ذلك كثيرون، كان من أشهرهم في القديم **الإمام الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)**، وفي الحديث فضيلة **الشيخ طنطاوي جوهري (ت ١٣٥٩هـ)**، والأساتذة الأعلام محمد بن أحمد الإسكندراني الطبيب، وعبد الله فكري، وعبد العزيز سيد الأهل، وأحمد مختار الغازي، وحنفي أحمد، ومحمد أحمد الغمراوي، ومحمد محمود إبراهيم، وإبراهيم عبد القادر محمد فرج، ومحمد جمال الدين الفندي، وعبد الرزاق نوفل، ويوسف مروة، وعبد الغني الخطيب، وأحمد محمود سليمان، وحسين كمال الدين، وأحمد محمد مجاهد،

ومحمد رشاد الطوبي، ومحمد عبد المنعم أبو الفضل، وعبد الحافظ حلمي محمد، وعبد الله شحاتة، ومصطفى محمود، ويوسف السويدي، ومنصور حسب النبي، وعبد المحسن صالح، وحسن أبو العينين، وعدد كبير من العلماء المعاصرين الذين أضافوا إضافات أصيلة إلى هذا الموضوع ـ وأسأل الله ـ تعالى ـ أن يبارك في جهودهم حتى يكملوا المسيرة على خير إن شاء الله، وأن يجزي السابقين عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وقد أدت هذه الجهود إلى بروز «**المنهج العلمي في تفسير القرآن الكريم**»، والذي يعتمد معطيات العلوم البحتة والتطبيقية، في تفسير الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله مع تفاوت في ذلك من عصر إلى عصر.

ويعتبر تفسير **الرازي** المعنون «**مفاتيح الغيب**» أول تفسير يفيض في بيان المسائل العلمية والفلسفية، خاصة ما يتعلق منها بعلم الهيئة (علم الفلك)، وغير ذلك من العلوم والفنون التي كانت معروفة في زمانه.

أما تفسير **الشيخ طنطاوي جوهري** والمعنون «**الجواهر في تفسير القرآن الكريم**» فيقع في خمسة وعشرين جزءاً، حاول فيها الشيخ ـ يرحمه الله ـ تفسير القرآن الكريم تفسيراً يتجاوب مع روح العصر وما وصلت إليه المعارف المكتسبة في مجال دراسات الكون، وما فيه من أجرام سماوية، وغيرها من عوالم الجمادات، ومن مختلف صور الأحياء، والظواهر الكونية التي تصاحبها، والسنن الإلهية التي تحكمها؛ ليبرهن للقارئ أن كتاب الله الخالد قد أحاط بالكون في تفصيل وبيان وإيضاح غفل عنه كثير من السابقين، وأنه بحق ينطوي على كل ما وصل وما سيصل إليه البشر من معارف.

هذا، وقد نعى الشيخ الجوهري ـ يرحمه الله ـ على علماء المسلمين إهمالهم للجانب العلمي في القرآن الكريم، وتركيز جهودهم على الجوانب البيانية والفقهية فقط بقوله: «لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب في علم الفقه، وعلم الفقه ليس له في القرآن الكريم إلا آيات قلائل لا تصل إلى مائة وخمسين آية؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه، وقل جداً في علوم الكائنات التي

لا تكاد تخلو منها سورة؟»؛ ولذا فإننا نجده في مطلع تفسيره يتوجه بنداء إلى المسلمين يقول فيه: «يا أمة الإسلام، آيات معدودات في الفرائض ـ (يقصد آيات الميراث) ـ اجتذبت فرعاً من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها.. هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور الإسلام.. هذا زمان رقيه، يا ليت شعري، لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في علوم الميراث؟»، ثم يضيف: «إن نظام التعليم الإسلامي لا بد من ارتقائه، فعلوم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن الكريم، بل هي علوم لفظه، وما نكتبه اليوم ـ (يقصد في تفسيره) ـ هي علوم معناه...».

ولم يكتف الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره بتتبع الآيات واستنتاج معانيها وفق ما ارتآه فيها من إشارات إلى مختلف الدراسات الحديثة؛ بل إنه قد استعان في هذا التفسير ـ الفريد من نوعه ـ بكثير من صور النباتات والحيوانات والظواهر الكونية، والوسائل التجريبية، كما استخدم الآراء الفلسفية عند مختلف المدارس الفكرية وكذلك الأرقام العددية التي ينظمها «حساب الجُمَّل» المعروف. وقد اعتبر المفسرون من بني عصره ذلك المنهج العلمي في التفسير ـ كما اعتبر من قبل ـ جنوحاً إلى الاستطراد في تأويل بعض آيات القرآن الكريم على غير مقاصدها التشريعية والإيمانية؛ استناداً إلى الحقيقة المسلمة: أن القرآن الكريم لم يأت لكي ينشر بين الناس القوانين العلمية ومعادلاتها، ولا جداول المواد وخصائصها، ولا قوائم بأسماء الكائنات وصفاتها؛ وإنما هو في الأصل كتاب هداية في أمور العقيدة والعبادة والأخلاق، والمعاملات والتي تشكل ركائز الدين الذي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيه أية ضوابط صحيحة. والقرآن العظيم حين يلفت نظر الإنسان إلى مختلف مظاهر هذا الوجود إنما يعرض لذلك من قبيل الاستدلال على قدرة الخالق العظيم، وعلمه، وحكمته وتدبيره، وذلك من قبيل إقامة الحجة البينة على الجاحدين من الكفار والمشركين ومن قبيل التأكيد على إحاطة القدرة الإلهية بالكون وبكل ما فيه، وعلى حاجة الخلق في كل لحظة من لحظات الوجود إلى رحمة ذلك الخالق العظيم ورعايته.

وانطلاقاً من ذلك كثر نقاد تفسير «الجواهر»، فهذا هو الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ يكتب في مقدمة تفسيره «المنار» ما نصه: «. . . .وقد زاد الفخر الرازي صارخاً آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين ـ (ويقصد الشيخ طنطاوي جوهري) ـ بإيراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولاً طويلة ـ بمناسبة كلمة مفردة، كالسماء أو الأرض ـ من علوم الفلك أو النبات أو الحيوان تصد القارئ عما أنزل الله لأجله القرآن».

وعلى الرغم من استنكار أعداد من المفسرين لهذا المنهج العلمي قديماً وحديثاً، إلا أن عدداً كبيراً من العلماء المسلمين ظل مؤمناً بأن الإشارات الكونية في كتاب الله ـ أي الآيات المتعلقة ببعض أشياء هذا الكون على إجمالها وتناثرها بين آيات الكتاب المجيد ـ تبقى بياناً من الله خالق الكون ومبدع الوجود؛ ومن ثم فهي حق مطلق، وصورة من صور الإعجاز في كتاب الله ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ وأن ذلك قد لا يتضح إلا للراسخين في العلم من المتخصصين في مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية ـ كل في حقل تخصصه ـ، وحتى هؤلاء يظل إدراكهم لذلك الإعجاز يتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، مصداقاً لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [صٓ: ٨٧، ٨٨].

ومصداقاً لقول رسول الله ﷺ في وصفه للقرآن الكريم بأنه: «**مأدبة الله والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد**»[(١)].

ومن هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين في مختلف مجالات

(١) أخرجه كل من الحاكم (١، ٥٥٥) والترمذي (٢٩٠٦)، والدارمي (٢/ ٥٢٥، ٥٢٦) من حديث عبد الله ابن مسعود؛ وصححه الألباني السلسلة الصحيحة (٢/ ٢٦٧).

المعرفة الإنسانية ـ في كل عصر وفي كل جيل ـ أن تنفر منهم طائفة لتتسلح بمستلزمات تفسير كتاب الله من إلمام بقدر كاف من علوم اللغة العربية وآدابها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وقواعده، مع معرفة بعادات المجتمع العربي الأول، وإحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور في التفسير، وبالسيرة النبوية المطهرة، وباجتهاد السابقين من أئمة المفسرين، وبغير ذلك من الشروط التي حددها علماء التفسير وأصوله، ثم تقوم تلك الطائفة على شرح آيات الكتاب الحكيم ـ كل فيما يخصه ـ حتى تستبين للناس جوانب من الإعجاز في كتاب الله لم يكن من السهل بيانها قبل عصر العلم الذي نعيشه حتى يتحقق قول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وانطلاقاً من ذلك الفهم ظهرت مؤلفات عديدة تعالج قضية الإعجاز العلمي في كتاب الله من أشهرها في القديم كتاب «كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية» لمحمد بن أحمد الإسكندراني الطبيب وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجري.

ورسالة عبد الله فكري (وهو من وزراء المعارف السابقين في مصر في مطلع القرن العشرين) التي يقارن فيها بين بعض مباحث علم الهيئة (الفلك) وبين الوارد من نصوص القرآن الكريم في ذلك، وكتاب «الإسلام والطب الحديث» لعبد العزيز إسماعيل، و«رياض المختار» لأحمد مختار (الغازي)، وكتاب «معجزة القرآن في وصف الكائنات والتفسير العلمي للآيات الكونية» لحنفي أحمد، وكتابا «في سنن الله الكونية» و«الإسلام في عصر العلم» لمحمد أحمد الغمراوي، و«إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض» لمحمد محمود إبراهيم، و«العلوم الطبيعية في القرآن» ليوسف مروة، وسلسلة كتب كل من محمد جمال الدين الفندي وعبد الرزاق نوفل في نفس الموضوع، وكتاب «أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة» لعبد الغني الخطيب، و«القرآن والعلم» لأحمد محمود سليمان، و«من إشارات العلوم في القرآن الكريم» لعبد العزيز سيد الأهل، و«محاولة لفهم عصري للقرآن» لمصطفى محمود، و«تفسير الآيات

الكونية» لعبد الله شحاتة، و«الإسلام والعلم التجريبي» ليوسف السويدي، و«القرآن تفسير الكون والحياة» لمحمد العفيفي، وكتاب «الإنجيل والقرآن والعلم» لموريس بوكاي، وكتاب «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» لمحمد علي البار. هذا بالإضافة إلى ما ظهر مؤخراً من كتب ومجلات عديدة وأبواب كثيرة عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة، وردت مجمعة في كتب إسلامية متعددة، أو متناثرة في كثير من التفاسير التي حررت في النصف الأخير من القرن العشرين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تعرض هذا المنهج ـ بحق أحياناً، وبغير ذلك في أحيان أخرى كثيرة ـ للمزيد من النقد والتجريح الذي أسس على أن معجزة القرآن الكريم هي في الأصل معجزة بيانه الذي أدرك أساطين اللغة العربية فيه ومنذ سماع أولى آياته أنه علامة فارقة بين كلام الله وكلام البشر، وأن علينا أن نفهم الإسلام كما بينه نبي الإسلام ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ. وكان من شواهد ذلك ومبرراته حيود عدد من الذين تعرضوا للقضايا الكونية في القرآن عن جادة الطريق إما عن قصور في فهم الحقائق العلمية، أو انتفاء لشروط القدرة على الاجتهاد في التفسير، أو لكليهما معاً. وعلى الرغم من ذلك كله فقد تمكن هذا السيل من الكتابات عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم من تهيئة النفوس لقبول ذلك المنهج. وسنوضح في الباب التالي اختلاف آراء العلماء حيال قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وذلك من أجل إيضاح أهمية هذا المنهج وضرورته، وتفنيد حجج المعارضين له.